

الشَّيْءُ الْبَرُّ

لِلْكَاتِبِ الْفَرَنْسِيِّ جُوسْتَا فِ جِيْفِرُوا
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ لُطْفِي جَمْعَةٍ

وبدأ كنز لو حياة البخل التي
شرعها حموه وسلفه الصالح ، فكان
ينازع زوجته رغبة النسل ، ويلجأ
إلى شتى الحيل ، خشية أن يرزقا
أولاداً يهلكون الحرث والبضاعة ،
ولكنه مع كل ذلك رزق منها بولدين :

فتى وفناته . فلما شباً قليلاً بمثت بهما أمهما —
التي احتفظت في عقد الزواج بحق التفريق بين
البائنة وصميم المال الموروث — إلى مقاطعة
لوسرن بسويسرا ، ليتثقفوا في خفاء عن والدهما الذي
كان يقتله الهم لو علم أنهما يتكلفان مائتي فرنك
كل شهر وهو ثمن مجلدين من أمهات كتب الطب
الحديث ولأجل أن تصون الأم روح زوجها
البخيل من التلف أخبرته أنهما يعيشان عائلة على
أقارب لها فأناجت صدره ونام مطمئناً على مال غيره ،
تلك الليلة . وفي أحد الأيام من فصل الربيع صعد
جورج كنز لو الصغير مع أخته لورا إلى أعلى البرج
القائم وسط قصر لوسرن ، للمرة الأولى منذ أن
قدما من بلدهما إلى تلك البقعة الجميلة الفاتنة ، فذهل
لما رآه من بساط سندس يمحيط بالقصر من كل
ناحياته ، تليه هضاب ووهاد ، من ناحية ، وغابات
من الناحية الأخرى ، فصاح بأخته الصغيرة لورا قائلاً :
— أختاه الصغيرة ! أختاه الصغيرة ! تأمل

الأرض حولنا

وكانت حاسة الجمال قوية في الطفلين ، وكان
الولد على خلاف والده وجده محباً للكتب يقرأها
ويحملها إلى فراشه وعلى مائدة طعامه ويقيه بها .
فأجابته أخته لورا وكانت تحب الجمال في كل شيء :
— إنها جد كبيرة تلك الأرض يا أخي الصغير

تزوج كنز لو الكنتي في شارع فيكتور هيجو
بمدينة ايون من أدبلايد مايجتو ، وقبض بائنة
قدرها مائة ألف فرنك ووضع يده على المكتبة .
وكان مسبو مايجتو والد المروس من أغنى الوراقين
وأشهرهم ، يتجر في المطبوعات القديمة ، ويحتكر
كتب التعليم المقررة في الجامعات والليسيه ، وكانت
ابنته أدبلايد وهي وحيدته ، على جانب من الجلال
والرشاقة وهي وارثته دون منازع ، فلم يختار لها
سوى صبيه كنز لو ، الذي حذق بيع الكتب ،
دون أن يفتح واحداً منها ، ولم يخطر بباله يوماً أن
يستطلع السر في إقبال الشيب والشبان على شراء
تلك الأوراق الخزومة المغلفة بمبالغ طائلة ، فكان
يحسد سيده ويسخر من جمهور القارئ ، إلى أن
شب وأدرك أمور الحياة ، فأخذ يغالى في الأثمان ،
ويحسن البضاعة للهواة ومدمني القراء والطلاب
حتى وثق سيده بمهارته وأمانته ، فاطمعه وكماه
ودعاه إلى داره وقدمه إلى بنته وزوجته ، ثم عقد
على الصبي والبنية وخلف التجارة ونزع إلى قرية
شاربونير ، حيث ابنتي قصرآ ؛ وبدأ يعيش عيشة
راضية بين الأزهار والكتب النادرة ، يقلب صفحاتها
ولا يدري ما فيها ، ويعرضها لزاريه مكتسباً نخر
اقتنائها .. إلى أن مات وعلى صدره نسخة ثمينة من
المهد القديم .

الصبي من قولها ، فقفر فاه وصاح بها مخذراً ...
وكان جليلاً في خوفه وتهديده

— لقد أمرتنا « ماما » ألا نخرج منفردين ،
فكيف بنا نجسر على الذهاب إلى أقصى المعمورة ؟
فصرخت فيه لورا : ها أنت ذا لا تريد أن تذهب معي
ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على فتح الأرض ، ولا أطمع
في الوصول إلى أقصى المعمورة مثلك . سأذهب
وحدى إلى هناك ، وبدرت من الطفل ضحكة
سخرية زادت في حدة الفتاة فنادت من أعماق قلبها :
إضحك ما شاء لك الضحك ! فسأذهب
وحدى أكشف عن المياه الهادئة الوديمة وأرى
حورياتها الجميلة ، بينما تجلس أنت في عقر الدار
تلاعب الدمية الصغيرة كطفلة يائسة ؛ وكأنما ألهمت
هذه الكلمات نفس الطفل الصغير ، وأذكت فيه
روح الجاسة ، فصاح صيحة الواثق : فلنذهب إلى
البحيرة ولنحفظنا الحوريات !

وفي أسيل اليوم التالي بعد أن آوت المربية إلى
حجرتها هرع الطفل إلى أخته وناداه قائلاً : هيا
بنا ! هيا بنا ! فأجابته فزعة :

إلى أين ؟ فأجابها وهو يجذبها لثبعه رغم تمنعها :
« سه سه ! سنذهب إلى البحيرة ... »

— ولكن كيف نذهب بمبدأ دون إذن ؟
انظر إلى حذائي الحوري الناعم ! هل يجوز أن
نذهب ؟ ثم تراها تمنع وهو يصبر ، ألم تمنعه بالأمس
عند ما أشفق من الذهاب معها ؟ ألم تمنعه بالطفلة
اليائسة تلهو بدميتها ؟ وإنه يكيل لها الآن الكيل
(٣)

فقال جورج : لقد أخبرني أستاذي بذلك ولكن
مريتني أدفايس قالت لي أنظر بنفسك قبل أن
تصدق ، الاختبار مقدم على السماع والقراءة . فقالت
الفتاة لورا : ما أفسى أن يكون للعالم كبيراً جداً
هكذا ، فقد يضل المرء سبيله أو يفصل عن أحبائه ،
إنني أحب أمي وأشتاق إليها . ولكن أبي ... ماذا
أقول ؟ لم لا يسأل عنا ولا يزورنا ؟

فتجاهل الولد ذكر أبيهما وأجاب : ما أبهج أن
يكون العالم متسعاً فسيح الأرجاء ، فيستطيع الإنسان
أن يفاصر ويبعث عما وراء الأفق ويقارن بين ما يقرأ
في الكتب وبين عالم الحقيقة ، ووراء هذه الألوان
البنفسجية ! أختي لورا ! إنني سأفتح كل هذه الجبال
وأصل إلى نهاية هذه الدنيا ...

— وما هذه الحجارة الملقاة بجانب الرتبة
الخضراء ؟ فقهقه أخوها قائلاً : هذه منازل يا أختاه ،
أفلا تعلمين حدود لومرن ؟
فسألته في سداجة :

— وما هذا المجرى الذي ينساب كالأفموان ؟
— إنه النهر ! أنظر إلى الجسر الحجري الجميل !
وقبل أن يتم كلامه قالت وهي تشير نحو الأفق :

— أخى ! أخى ! أنظر ، أنظر ما هذا الذي
يضيء في جانب الجبال الزرقاء كصفحة من البلور
الأزرق ؟ فأجاب : هي البحيرة التي حدثتنا عنها
مريتينا ادلفايس ، محذرة إيانا من مائها الخطر
الجميل ومن الحور الحسان — عرائس الماء —
اللاتي يسكنن في خفاياها ويخطفن الأطفال . فأجابته
في تصميم وحزم : فلنذهب إليها ! وكأنما ارتفع

سكون رهيب ، وصرخت الطفلة « لقد فقدت
حذاءي ، حذاءي الحريري الناعم ، فكيف أواصل
السير بقدم حافية ؟ وتلفتت خلفها فظهرت قلاع
لوسرن من بعيد كمنطقة سوداء بين السحاب والظلام
فارتاعت الطفلة ، وصاحت واجفة :

رباه ! سوف تأكلنا الدئاب العاتية ، وسوف
تموت أمنا من اللوعة والأسى علينا . فضحك
جورج وهو يقدم لها حذاءها الذي التقطه في
غفلة منها .

— لا تخشى بأساً يا أختي الصغيرة ! ! سنمود
ثانية قبل هجوم الليل . . فالى الأمام ! هيا !

وعادا بعد بضع سنين إلى ليون ، وأظهر جورج
نجاحه في الدرس والفهم أدهشت المعارفين بمجهـل
أبيه وغيبائه وبلادته ، وعلموا ذلك بالرجوع في قانون
الورثة ، فقد تفوق الفتى في الآداب والفلسفة
ونظم الشعر حديثاً ، وأمسى موضع ثقة أساتذته
وإعجاب رفقائه ؛ وظهر نبوغ لورا في الموسيقى . فلما
شباعن الطوق وأدى جورج الخدمة العسكرية ، ماتت
الأم ، فوضع الوالد البخيل الجاهل يده على التركة ،
وأظهر من الشح في النفقة والتعليم ما قطع على
الفتى وأخته طريق العلم والتثقيف . وحتم كنز لو
على ونديه أن يلازمه في المكتبة للبيع والشراء
ولقاء العملاء ، فكانا بأنفان أن يراهما زملاؤهما
في الدرس أو يتحسر الأساتذة على نبوغ جورج
وجمال لورا اللذين يريد الوالد وأدهما بين جدران
المكتبة العتيقة المظلمة في ظلال بوائك شارع

صرتين ، والصاع صاعين ؟ فلتذهب معه ، رضخت
أم لم ترضخ ، وافقت أو لم توافق ! ووافقت الطفلة
في تحفظ قائلة : فلنذهب من طريق غير طريق
القرية ، خوفاً من أن يرانا أحد فتسوء العاقبة
وتولى أخوها الشرح والايضاح « سنتبع في
سيرنا طريق « جراتشن » الذي يدور حول القرية
من الناحية الأخرى »

وسارا في طريقهما بينما أخذت الصغيرة تجمع
زهى البنفسج الساحر ، وزهر الثالوث من أبيض
وأحمر ، تريد صنع باقة جميلة تهديها إلى حوريات
البحيرة ، وشاركها أخوها في العمل في نشاط
واهتمام وقد زال خوفه وحذره

وأجهدت الفتاة نفسها في السير إلى أن وقفت
إعياء وقالت : أخى إني عطشانة ! فأجابها وهو يلهث :
وأنا كذلك ، غير أن النهر مازال بعيداً ولا أرى
في هذه الجهة مجرى ولا نبعاً
— والآل ما العمل ؟

وما زالا في حيرتهما حتى رأيا فلاحاً قد أقبل
من بُعد ، يحمل سلة فاكهة من العنب الأحمر الشهي ،
ويشاه حسن حفظهما أن يكون مع الفتاة جنيته
ذهباً ذو بريق يخطف البصر ، وأن يرضى الرجل
إعطائهما بعض العنب في مقابل الأصفر الزمان .
وسار الطفلان يتمتعان بالنهم الحبيبات الحمراء
البديعة ويلقيان البذور ذات اليمين وذات الشمال ،
وأخذت أشعة الشمس الذهبية تميل وراء الأفق
البعيد ، بينما أخذ النسيم الليليل يهب مداعباً شعر
الفتاة في رقعة وفي حنان . وسار الطفلان يحوطهما

فأما لبس الصوف والفرو اليوم فهو غير جائز فقال
العميد : ولم ؟ قال الوراق كئزلو وهو يرجف
غيظاً من سرف الشيخ ويود لو يحجر عليه للسفه ؟
ولكنه كظم غيظه لأن غبار آخر الصيف يتداخله
ويسكن في خلله ، فإذا نزل المطر ، وندى الهواء
وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وإنما الغبار
تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح يتقبض
عليه الفرو والصوف فيأكلهما أكل الأرضة ويعمل
فيهما عمل السوس في الخشب والصدأ في الحديد !
فضحك العميد كاعير ، ونظر حوله وقال وهو يسرع
إلى الطريق :

— حقاً إنك لم تتجر في كتب العلم عبثاً ...
لله ما أوسمك ! أنت وباستير فرسارهان ! الهذا
أهملت تعليم ولدك وثقيف ابنتك ..؟

فبرز جورج لأبيه بعد أن انصرف العميد وقال :

— ماذا دهاك يا والدي حتى تمترض الناس في

أخص شؤونهم ؟ أنتحرم عليه الدفء بشيابه وهي
ملكه وقد عتقت وبلت كما شارف صاحبها على
الهلاك ؟ وأنت الذي تحشى البرد وتصطك أسنانك
في مستقبل الشتاء ؟ فقال الوالد : أنا أخشى البرد ؟
حينذا البرد من طقس ونعم الشتاء من فصل ، فانه
يحفظ رائحة الطعام البائت ولا يحمض فيه النبيذ ،
إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق أن يبقى أياماً ،
وتطرح الحكومة مدافئ للناس في الطريق ويشيع
بيع القسطال الساخن وهو أرخص غذاء وألذ
وأسهل ، ولا بسألك الناس عن تقصيرك في النفقة
إذا لم تذهب إلى ملعب الأوبرا ، محتجاً بداء المفاصل

فيكتور هيجو . ولم يكن كئزلو يشعر بشيء من
ذلك ، بل كان أبجل من خلق الله وأخبث من
خلق الله ، وكان له في البخل كلام معقول ، ومنطق
موزون ، ومبادئ ثابتة ، فقد رأى موسيو كاعير
عميد كلية الحقوق مرة في أكتوبر وقد بكر البرد
شيثاً ، والعميد شيخ كبير طاعن في السن ، فلبس
كساء له مبطناً بفراء خفيف ، قد نيل منه ، بعد
أن سحب لابسه عشرين عاماً .

وكان انقطع عن شراء الكتب فلا يضير الوراق
أن يهيج فيه غريزة الحرص على المال فقال له :
« عم صباحاً ياسيدي العميد ! ما أقسى السرف
بالمافل العالم ، وأسمح التبذير بالحكيم ! ما ظننت أن
أن الاحالة على الماش والانسحاب من حياة الجامعة
يبلغ بك ما أرى ! فدهش العميد السابق وقال :
وأى شيء أنكرت منا منذ اليوم يا موسيو كئزلو ؟
وما كان هذا قولك فينا بالأمس . فقال :

— ليلك هذا الكساء قبل أوانه ، فقال
للعמיד : « قد حدث من البرد بمقداره ولو كان
هذا البرد الحادث في يوليو أو أغسطس لكان إباناً
لهذا الممطف ، فليست فصول السنة بأوراق التقويم
تعرف ، ولا بتواريخ الأيام تقاس ، ولكنها بشمور
الأذكياء الذين خانهم الله وسوأهم بغير ريش ولا
لُبد ، ولا جلود سمكة كالنسور أو السباع » قال
كئزلو : « إن كان ذلك كما تقول ، فاجمل بدل هذا
الممطف الثمين البطان بالفرو كساء أصم ، لا يخترقه
البرد ، بثلاثين فرنكاً من مستودع « ألف صنف »
فانه يقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ

الفنون الحديثة وعلى صري حجر من مستشفى «شارتنيه» كان شاب جالساً على المقعد الطويل ينفض من البرد ويتلوى من المسغبة وكأنه يمانى سكرات الموت، يكاد شغاف قلبه يتمزق، وكادت أطرافه تذوب، وقد علت الصفرة وجهه والزرقة أظافره، وأحس بأن عظام بدنه تنفتت، وكان البرد شديداً في ذلك المساء من شهر ديسمبر فسرى إلى ذهنه الداهل خاطر سريع.

— لماذا لم يدركنى الموت منذ ساعات، بل منذ أيام وأشهر طوال؟ أفى الانسان تلك الحيوية القاهرة؟ أم إن الأعمار محدودة كما يقول مارك أوريل في تأملاته...؟ وهل الحظ العاثر يتغير ويتبدل بتبدل حركات النجوم، كما يزعم إبيكتيت؟ ألا إن الحظ السعيد لن يدركنى ولو أطلق ساقيه للريح! إن نهايتى قريبة... وعلى غرة منه وهو ساج في أحلام شقائه، لا يذكر الماضى، ولا يملك أن يمرض حواده، ولا يرى شعاعاً من نور المستقبل، وينتظر انسداد الليل ليتمدد على خشبة المقعد لعلها تكون الرقدة الأخيرة، سمع وقع أقدام مقبلة نحوه فبشر نفسه بمقدم الشرطى الذى سيقوده حتماً إلى قويمسير البوايس، فغرفة السجن الدافئة، فان السجن أحب إليه من الحرية، لأن الحكومة أشفق عليه من القدر، ودنا منه سواد وصوت ولكنه لم يرفع رأسه ليتبينهما وسمع صاحب الصوت يقول:

— هل تتألم من الجوع والبرد؟

فقال: البرد والجوع من شأن من يشكوها

والزكام والسعال ورغبة الكن، وتدفع الكنائس بأنايب البخار فلا نشعر بالصقيع أيام الأحد ونستغنى عن مما كسة الفحامين، ومشاحنة الجمالين، ولا نحتاج أبداً إلى الحشب والورق، وفي الشتاء أفلح في الران على الجوع، فلا أشمر أثناء الربيع بالسغب فن صبر عن الطعام شهراً بارداً، استطاع أن يصبر بقية أشهر السنة.

قال هذا وهو يفرك يديه متهللاً كمن انتصر في معركة.

ولما طالت المزمومة على هذا البخيل، خطب لنفسه مدام دولاك الحلوانية التى كانت تنفض الطرف عن اختلاس فطائرها، فبأكل منها سبماً ولا يحاسب إلا على أربع، تريد أول الأمر مصاهرته، فبادر إلى خطبتها آملاً أن يلهم مالها وفطائرها، فلا يفتقر ولا يجوع في ظل تلك الأرمل الدسمة. فلما غضب الولدان من زيجة أبيهما وتخيلاً أن هذه الدردبيس السمجة ستحل محل أمهما أنكرا على أبيهما فعلته، فباع الأثاث بالمزاد وانتقل إلى بيت زوجته الجديدة وفرض لولديه نفقة سنوية، فلم يطيقا المعيشة ولم يجرا على محسبته أو مقاضاته، واختفيا من وجهه، واتخذ كل منهما سبيله في الأرض هرباً وقد فرقهما الفقر والفسوة، بعد أن جمعتهما الثروة والحنان، وحمل الفتى بعض كتبه وثيابه وحملت الفتاة حليها الوروثة وحللها وقيثارها ولم يسأل أحدهما الآخر أنى يولى وجهه.. فضرب الدهر بينهما.

في حديقة لوكسمبرج على مقربة من متحف

— هل البرد شديد ؟

أجاب صاحب الصوت : نعم وإنه لشتاء قاس
قال : « يخيل إلي أنني سمعت رجلاً يقول : « حبذا
البرد من طقس ، ونعم الشتاء من فصل ، فإنه يحفظ
رائحة الطعام ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً
ولا يفسد فيه مرق إن بقي أياماً ، وتطرح الحكومة ...
أختاء هذا هو حذاؤك الحريري الناعم ... » . ولم
يكمل كلامه بل سقط على الأرض ، فقلته المحسن
ميتاً فحمله على ظهره إلى أقرب سيارة ، وهو يحس
نبضه ، ويفرك صدره ... وفتح الشاب عينه بعد
ساعتين وهو يحس بالدفء والحياة ورائحة الطعام
تهب على وجهه ، فطلب إليه أحد الخدم أن يدخل
الحمام قبل الطعام ، وأن يترك ثيابه ليلبس سواها
جديدة ؛ ولما أكل ونام وتيقظ لم يسأله أحد عن شخصه
وتركوه أياماً حتى استعاد قوته ونشاطه وعرضوا
عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات الرفيعة كالنصير
أو الموسيقى أو إحدى الحرف النافعة كصنع الأثاث
أو النسيج الرقيق ، فاختار التصوير واجتهد في
إتقانه ، ولكنه كان يقضى معظم وقته في المكتبة
ويحمل كتباً لا يفارقه ، وعبثاً حاولوا أن يقصوه
عن القراءة حتى يحسن منه فيربح منه ما يمينه على
هوايته . وكانت أيام الشتاء قد ولت وعاد الربيع
بأزهاره وأطيّاره ، وعاد الشاب إلى كتبه وأشعاره ،
إلى أن انتهز فرصة ، فاستأذن في الخروج ، ولم يعد
إلى الدار ، بل عاد إلى حياة التشرد حياة مفلوكة
طليقة من كل قيد واتخذ له مجلساً ومقرراً في برك
مونسو على مقربة من تمثال جي دي موبسان ، ذلك

وحده ، فذهب عنى بسلام أو اقبط على إن كنت
شرطيّاً ، فأننى متشرد لا مال لى ولا صنعة ولا
مأوى ، أو أتركى أذهب إلى جهنم إن كنت قسيساً
فأجاب صاحب الصوت ، وهو يلمسه بلطف
بيد كريمة :

— لست شرطيّاً ، ولست قسيساً ، ولكننى
أستطيع أن أنقذك من الجوع والبرد والالم والوحدة
فنحن أفراد جمعية البر بالطرداء ، نجوس خلال
الحدائق العامة ، ونغرق تحت الجسور ، فنفرح بهم
ونعنيهم ما استطعنا . وليس البر من صلب مالى ،
ولكنه بمض الدين الذى فى أعناق المجتمع يسده
لكم أفساطاً ضئيلة على أيدينا ، فهل تقبل ما أعرضه
عليك وتميننى على أداء واجبي نحوك دون أن أسألك
عن شخصك أو أصل بلانك ؟

فأحس الشاب بأنه مقود إلى صاحب الصوت
المهادى واليد اللطيفة الكريمة ، ولكن البرد والجوع
قد أتلغا أعصابه ، حتى غشيت بصره سحابة ،
واختلج صوته فى حنجرتة ، وخائته رجلاه وهو
يحاول النهوض ليتبع المحسن مستسلماً ، ذأى بلاء
يخشاه بعد الذى هو فيه ؟ وما خوف الغريق من
البلل ، والمحترق من مستنصر الشرر ؟ فلا حذر
اليوم ولا وجل ، ولا رضى ولا أمن ، فقد استوى
لديه الماء والخشب ، والبعض والحب ، وتكافأت فى
عينه محاسن الدنيا ومساوئها ؛

فلما نهض ارتجف وكاد يقع على الأرض ،
فأسندته يد كريمة . فقال الشاب كمن يفيق من
غيبوبة :

بعيداً جداً تتبع رجلاً في خطواته وتسأل نفسها
عن وفائه وخيائته ، أمى مهجورة في مضجعهما ،
أم منتظرة حبيبها ، أم يائسة من لقائه ، أم تائبة
بعد أن اكتوت بزار الحب اللاذعة ؟

فكان الشاب يجلس حيال هذا التمثال في
وقت الأصيل وبين يديه كتاب ، وفي لحظة يستعرض
حياته ويحار في مصيره ، ولكنه كان يقضى النهار
متسكماً لا عمل له . كل ما يملأ ذهنه تلك الطيور
المفردة المتحركة بخفة أجنحتها بين الأغصان ، ثم
مناظر الطبيعة في موسم الربيع الساحر ، في تلك
المدينة الباهرة الجمال . وكان أحياناً يقصد إلى بعض
التاحف والمكتبات فيسألخ فيها بعض ساعات النهار
ثم جاء الصيف ومر سريعاً ... ثم جاء الخريف
وعادت السناء إلى الوجوم والتلبد بالنيوم وبدأت
أمطار باريس تهطل مدراراً ، والبرد يتضاعف
ويصعب أفكاره بالسواد . أين يجد حياة تقيه متاعب
الشتاء ... خطر له أن يبيع الكتب القديمة على ضفة
النهر ... وأثناء تفكيره كتب قصة عن حياة طفلين ،
ونظم قصيدة في حنان الأم وبعث بهما إلى جريدة
« الماتان » لأنه تفاعل باسمها ، أليس كل الخير والبركة
والبشاشة في البكور واللبكور في الصباح ؟

وجعل عنوانه مكتب البريد بشارع بونتييه ،
لقربه من بستان مونصو ، حيث تمال مؤلفه
المحبوب . ولكن الجريدة لم تستجب له ، ولم يشر
أعدادها بانتظام ليرى قصته وقصيدته . وضاعت الدنيا
في عينيه من جديد ، وندم على أنه ترك بيت المحسنين
الذين أنقذوه أول مرة وخجل أن يطرق بابهم ،

الكاتب الذى أحبه فى صغره فكان يأنس إلى
تمثال أقيم هناك لتخليد ذكرى ذلك الكاتب الذى
شفف بقراءة كتبه فى عهد محامى الشقاء من
ذاكرته ، ولم يقو على محو روح هذا الكاتب من
لوح فتأده المذنب ، فقد صنع له التمثال صورة
امرأة من نساء باريس فى آخر الزمن ، ونهاية
هذا العصر ، مضطجعة على « شيزلونج » ومتكئة
برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة ،
على مصممها الفنان ، وفى يدها الأخرى كتاب
كانت تقرأ ولعله « قصة حياة (١) » وإلى جوارها
عمود من الرمر نصبوا فى أعلاه تمثال جى دى موبسان
فى الأربعين من عمره ، وهى السن التى مات فيها
نزىل مصحة دوكتور بلانش ، وقد كان هذا التمثال
فى أول أيام الربيع مدعاة لتفكير الشاب ونأمله ،
فإن المرأة الراقدة فى يقظة النعسان ، وإن كانت من
الرمر الملون ، إلا أنها ناطقة بمشرات المعانى ،
التي لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف
على الصورة المجيبة التي أودعها المؤلف كتبه ،
سواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار ،
أم النوادر الصغيرة « الناليتة (٢) » امرأة فى مقبل
العمر وروعة الجلال عليها كل مظاهر الفتنة والحيرة
أمام لغز الحب والحياة ، وكأنها تطلب حل هذا اللغز ،
من ذلك الكتاب الذى تقاب فيه أجفانها أثناء
تقايب صفحاته ، تقرأ بعينها وعقلها وقلبها ، هناك

(١) قصة Une vie من أشهر كتبه

(٢) Histoire gauchoise قصة فيها مجانة وخلاعة نسبة

إلى بلاد « الغال »

يقصد إلى المقعد الذي تمود أن يجلس عليه ، بل أخذ سمته إلى ناحية قصوي وأخرج الفئينة من جيبه ، كانت كقارورة المطر التي يفوح منها ريح الموت الريح . ونظر حوله فلم يجد حياً عاقلاً سواه ، غير أنه لمح طائراً صغيراً يبني عشه في أغصان الشجر فضحك ضحكة عالية وهو آمن ألا يسمعه أحد وقال : حتى صفار الطير مسخرة للحياة ، تلتبس رزقها وجرة الماء وتبني عشها ذرة فذرة وقلامة ققلاية ، وتغني وتمشق وتخضع للحب كما تلتقط الحب ، وتستهدف لحصاة الطفل ، ونبل الصائد ، ومنقار الجراح ومخالبه ، وأظفار اللقط الجائع ، لتبيض وترقد على صفارها حتى تفرخ وترش ... أما الانسان العاقل الطموح إلى الحياة ، المدرك لدقائق الدنيا ، المتطلع لأمرارها ، يتلى ويجوع ويبرد ويظلم ويأس وهو آمن . دني لم لم يصنعوا قانوناً يضمن لنا الحياة كما ضمنت أنت الحياة لهذا الطائر ؟ لقد تركته طليقاً وتركونا في أقفاص ضيقة أتراك نحاسبني وتسألني عن تلك الثمالة من عمرى .. ولكن إذا كانت هناك بقية فلم مكنّت لي شراء هذا الدواء ، وأعددتني للموت هادئاً في ذلك المكان المهجور ، وسط المدينة الصاخبة ؟ إن قليلاً من ملهم وطعامهم وثيابهم ونارهم ، يرد عنى غائلة الردى الذي حبيته إلى ! ألهذا ولدتنى أمى الحنون وأرضعتني وخافت على عادية الهلاك طفلاً وفتى وإفماً ؟ ترى كم من فتى مثلى في موقفي هذا بين يديك في تلك اللحظة الدهشة . وما قصصهم ؟ وما هي طريق المسيح التي وصفت بالمداب وهو يحمل صليبه ؟ هل كانت خشبته أثقل على كاهله من خشبتي التي لا يراها أحد ، ولكني أشعر بمبشها ؟

ولله نسي مقبرهم ، فهل يترك نفسه للموت البطيء وكان في العام الذابر أقرب إليه من جبل الوريد لولا أن أدركه الله . فلن يتحمل الآلام القديمة من جديد ، فلا بد له من الخلاص من الحياة ، فاستجدى ثمن مسم سائل في زجاجة صغيرة ، استجدى امرأة شابة ، ظنها ذاهبة إلي موعد غرام ، والمرأة أكرم ما تكون عند ما تقصد إلى لقاء الحبيب ، فمأطفتها أرق وقلبها ألين وأرحم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، لا يزال به أثر للجمال ظاهر ، وبقية من نعمة مفارقة فأخذ الصدقة ، ليدفعها ثمناً للزعر ثم القبر المجهول ، إن رُخامة « الورد »^(١) أحن على ضلوعه من البرد والجوع ومن هذه المدينة ذات الجمال والأضواء بل أحن عليه من أبيه . ولما ظفر بالسم عادتهلاً ، لأنه سيقضى على آلامه إلى الأبد ، وفي لحظة ذهن لامة تذكر أباها أثيرجيل :

إذا أشرفت النفس الحزينة على الموت
تجردت من همومها واستبشرت
سوف يكسر الموت الموانى أغلالها
ولا يهمها أن تخرج مختارة أو مرغمة
فأنها تعبر القنطرة في طرفة عين
عبور القنطرة بالنار أو بالماء

بالخنجر أو بالسم الزعاف . إن العين لن ترى ، والأذن لن تسمع ، والمقل لن يذكر ، عبور القنطرة .

فكردها وترنم بها ، وكأنه يقرأها في كتاب قديم في ركن مكتبة عتيقة في شارع مظلم ، في مدينة قائمة ، فمن هو وما هي المدينة ؟ ذهب إلى الحديقة — بارك مونسو — ولم

ساعات طويلة قبل أن يعود إليه رشده ، وفتح عينيه
فاذا به في غرفة مشرقة وإلى جانبه امرأة في ريمان
الشباب تحنو عليه وترعاه ... وقد حملته إلى سرير
نظيف وفراش ناعم وأشعلت ناراً وجلبت له طعاماً
ونبيذاً وأزهاراً بائنة . فشعر بالحياة تعاوده . وعرف
أنها عاملة في أحد مخازن الكتب ، وأنها كانت في
الحديقة بانتظار حبیبها الذي أخلف مواعده فماتت
إنقاذه خيراً من الصبر على صديق متباطيء ، فهل
أخطأت ؟ نعم أخطأت ولكنني أحبيتك منذ
رأيتك ، وغفرت لك ذنب إقصائي عن الموت الذي
كنت أنشده .

وقبلها وضمها إلى صدره . وشعر بأن قوة
تجذبه إليها ، ولكنها مانعت ، لأنها لا تزال مرتبطة
بالآخر الذي كانت تنتظره ، فلتقاطمه أولاً ، بصراحة
لا تعرف المواربة . ستذهب إلى الحديقة فنلقاه
وتودعه ، وهي لن تلين له بمد اليوم ، وإن كان
جديراً بشكرها لأنه يسر لها إنقاذ حياة الرجل الذي
أحبته ، فوافقها وصحبها إلى سور البستان ، وشهد
خلال أعواد الحديد والأغصان موقفها . فانه لم
يزد على دقائق معدودة

قالت له في رفق : إن ما كان بيننا قد انتهى .
والماضي لا يعود ، وداعاً .

وعادت إليه فرحة سرورية كمن وضمت حملاً
عن كتفها . فقال لها : أهذه السرعة تقطعن حبال
الود ، وتدفن غير باكيات ذكريات الهوى ؟
فضحكت وقالت : عوضني الله بدل الدرهم ديناراً ،
فانك أنبل وأشجع وقد سمعت مناجاتك كلها قبل

هأنذا أقصد إلى الجولوجوتا طائماً ، وايس ورأى
حواريون سيكون ولا جنود يخزونني بأسنة رماحهم
ولانساء من الأهل وللمابيدات يندبني . هأنذا أصنع
خلاصى ييدى ، ولكن أصنمه بخطيئة حلوة ، لأنها
تحد من شقوتى . غداً بقرأون نبأ مصرعى ، ساموت
بجهولا ويقولون شريد قضى مجهول لا يمت لأحد
بصلة ، وإن تذرف عين على جسدى العارى دمة
واحدة . ألا وداعاً أيها الحزن الدائم وأيتها المخاوف
من برد الساعة الرابعة ، وأيتها الجوع القارص
وأيتها الذكريات الغامضة . سيفوز حتى ضعيف
عاجز ، بالانتصار على الطبيعة وعلى قوة القدر ،
سأعوى بجمرة واحدة أعواماً طويلة من الشقاء
الرتقب . وسأرمح في لحظة غفران ذنوب لم ترتكب
وسأخلص نفساً ، وكأني أخلص النفوس جميعاً ..
إلهى ! إلهى ! لماذا تركتني ؟

ثم رفع يده بالزجاجة ، فتجرع نصف ما فيها
وإذا بصرخة مدوية ، أفقدته بقية رشده ، فلم يتم
شرب منيته وأرخص يده . ترى من صاحب هذا
الصوت المشثوم الذى أفسد عليه جمال تلك اللحظة
الرائمة ؟ من ذا الذى تدخل متطفلاً بين الموت
وبينه ؟ من يكون ذلك الثقيل الذى لم يدرك جمال
البرهة الزهية المقدسة ؟ من قطع تلك المحادثة بينه
وبين ربه الذى يصنى إليه فى حنان ورحمة ويمد
الملائكة لاستقباله ؟ أو .. فى غضب ونقمة وبأسر
الشياطين ليجروه إلى سقر . هل كان دانتى اليجيرى
كاذباً إذ وصف عذاب المتجربين فى تلك الهزلة ؟
ثم أغمض عينيه وراح فى غيبوبة مظلمة . ومضت

أما القصائد فلها حساب آخر وإن شئت فاسحب من الصيرف قسطاً على المحاسبة ، وليكن ألف فرنك لنضمن تعاونك فذهل من كرامة الرجل ، وأراد أن يشعره بمجاهه فقال له :

— إني أقبل لأمرك ، فلست بحاجة إلى المال فقال الرئيس : إن اسم كنز لو ليس غريباً على . أتعرف صاحب مكتبة شهيرة بهذا الاسم في مدينة ليون ؟

فقال جورج كنز لو - إذ لم يكن سواء - أنا ابن صاحب المكتبة بعينها . .

فقال الصحفي : إني آسف لما أصاب والدك ، ولا أحب أن أحرك آلامك وقد نشرنا نعيه منذ عام بشيء من التفصيل وأغفلنا ذبول الحادثة خشية ذبوعها .

— فإني هذا العدد . . . وإن كنت

— فبعث الرئيس في طلبه وقدمه متلطفاً ، فطواه جورج وشكر الرئيس وودعه ومر بالخزانة ليقبض القسط الموعود ، ثم قصد إلى مقهى ونشر الصحيفة . وعلم وهو بين الفرح والألم أن والده مات فجأة عقيب مشاجرة بينه وبين زوجته ، فاتهمت بدس السم له في قطار دسمة ، وأثبت الدكتور لوكار إمام الخبراء في الطب الشرعي أن في أممائه أثاراً من زرنبيخ ، فهاج الرأي العام ونشروا بدمام لا فارج جديدة ، فاعتقلت الحلوانية - مدام كنز لو - حالا وهي مدام دولاك سابقاً ، فخنقوا تركته وجردوا ثروته . وإذا بها تربي على ربع مليون ، وأنكرت التهمة أن له ورثة ، ولكن الجيران شهدوا بحياة وارثين من صلبه ولكنهما غابا غيبة منقطعة ولعلهما يطلبان العلم في بلاد نائية ولم يبلغنهما (١)

أن ترفع يدك باسم إلى فك ، وكنت موزعة بين النذرة والروعة ، وبين الخوف على حيائك والخوف منك . وحسبتك في أول الأمر شاهراً مجنوناً ، إلى أن ذكرت سيدنا المسيح ، واستغفرت لله من المعصية ، فأيقنت أنك يائس ولكن خشيت أن أزعجك ، فلما رأيت السم يسيل بين شفقتك خاطرت بعمري في سبيل عمرك . ستعيش وتنجح وتفوز فما أنت للشقاء خلقت .. وعادا إلى غرفتها . فألفاها عامرة بالكتب التي تشتريها وتستعيرها وبأوراق الموسيقى التي تجيد عزفها فأخذ يقرأ ويأكل وينام وينتظرها وهي تدأب وتعمل وتوفر له مطالبه ، ولا تتألم ولا تصجر كأنها أم فرشت فأنامت ولم تسأله عن اسمه ولا صنمته ، وهو كذلك لم يسألها ، فلو أنهما افترقا وافترقا كل صاحبه لما اعتدى إليه أبد الدهر . وإذا عادت ذات مساء وكانت تحمل رغيلاً ملتفاً في جريدة قديمة ، لمح اسمه فحكم عنها الأمر ، ثم تناول الوريقة الدالة وقرأها . . . هذه قصته منشورة ، فابتنسم . وفي الصباح ذهب إلى مكتب البريد فإذا مكاتب تنتظره ، وكلها تدعوه إلى لقاء رئيس التحرير لأمر مهم ، فلم يستطع أن يخفى عنها رغبته في الذهاب إلى إدارة الجريدة فعنيت بتيابه ومظهره فراح منقشاً معطراً ، فلما تقدم إلى رئيس التحرير ، رحب به وقال له : يهمننا أن تساهم في تحرير جريدتنا التي مرها نشر قصتك وقصيدتك ، ولا ريب أنك كنت تتجول في الأفطار تجمع مادة لكتبتك وهذا الذي دعا إلى إبطائك في تلبية دعوتنا . إنك من فحول كتابنا المظهورين ، ولملك غنى ، تعمل لأجل الفن ، ولكننا لا نقبل مساهمة بغير أجر . سندفع لك مائة فرنك عن الفصاة الواحدة مؤقناً

— أخى جورج . لا تحاول البحث عني عبثاً
فانى عرفتك بصوتك وملاحك منذ الوهلة الأولى
ولكني لم أرد أن أجهك بما وصلنا إليه من الشقاء .
أما أنك لم تعرفني، فلأن الألم قد أثر في ذاكرتك .
لقد ذقتُ أكثر مما ذقتَ ، ولذا لم أسألك عن
نفسك شيئاً . لقد شهدت عاري ، وعلمت من حياتي
ما لا يسمح لي بلقائك إذا عرفتنى . أما شقيقتك
لورا البائسة . لقد مات والدنا بيد تلك المعجوز التي
اختارها بعد أمنا ، وترك ثروة طائلة ، ولكنني
لا أجد على الدهاب لإثبات وراثتي دونك وأفضل
الموت الآن على مواجهتك ، بعد أن علمت أنني
سقطت في أحضان رجل لم تربطني به رابطة الزواج
أنا التي أنبتتني أمي نباتاً حسناً ، ولم يمن عليّ عليك
إلا جنون أبيتا الذي في الأرض . ستمود إلى غرفتي
فلا تجدني وسوف أختفي في باريس إلى أن أغادرها
إلى بقعة مجهولة . إنني أحمل على كاهلي الصليب الذي
تركته في حديقة مونسو . لكل مناصبي . ولكنني
لن أقتل نفسي ، لأنني لا أزال مؤمنة . لقد أحببتني
وحدثتك نفسك بالرقاد في فراشي خائلاً وأنت
لا تعلم أنك أخى . لعلي أخطأت إذ لم أسأرك في
الساعة الأولى . ولكنني خفت عليك أثر الصدمة ،
وأنت ضعيف محتاج إلى العناية والهدوء . إنني فتية
صحيحة البدن وسأجد رزقي كذلك المصفور الذي
وصفته وأنت على شفا الهاوية . لقد كان نبش عشي
نتيجة إغناك ، فهل أندم أن كنت سبب نجاتك ؟
سوف ألقط حبي ، وأحاول أن أبني عشي دون أن
يصيدني سائداً مكر . سأغرد بأكية وأذرف دموعاً
ساخنة على فراقنا المرة بعد المرة . إصفر عني
واغفر لي ، فاني لم أقصد إلى تدنيس شرفك عامدة ،

نبي أبيهما . فهذه الثروة ثروتها . ولما كان قاتل
المورث لا يرث في حكم القانون ، فقد أصبحنا بنير
مضاحم ، لأن الوصية التي ضبطت في الأوراق ،
أمت لغواً ولم تفد المرأة إلا دليل إثبات عليها
ولا تقدر على نفيه . فإثبات عيناه بالدموع وهو يقرأ الخبر
المطول وتذكر طفولته وأخته وأمه . ولكن أين هما ؟
هل هو في حلم أم في حقيقة . وهل كان في
عداد الأغنياء عندما كاد يموت من الجوع والبرد .
ما أوسع ياربي رحمتك ! وما أعجب تدبيرك وأحكامه .
وهذه الفتاة الغريبة التي أنقذتني ترى ما يعترها
من جنون الفرح إذا علمت أنها لم تنفذ ما شردها
ولا طريداً ولا ضيقاً ، بل أنقذت غنياً شريفاً
يحب الشعر والأدب ، كان وأخته ضحية البخل
وجنون الذهب ، وكانا ذوى مواهب كامنة قضى
عليها أوم الحياة . نهض جورج كنز لو فاشترى أزهاراً
وثياباً وأطعمة دسمة وحلياً ولم يقرب الحلوى ،
وأتخذ مقعده في سيارة نفخة . وقال : سأزوج
منها اليوم ، وسنبحت عن شقيقتي معاً . لشد
ما يكون فرحنا جميعاً عندما نعود معاً إلى ليون ،
ونفتح أبواب المكتبة . ثم لا نمترض على ثياب
الناس ولا نمتدح فصل الشتاء الملون ، سوف
نقضي الصيف في لوسرن لنرى القصر والحصن
والبحيرة والجبل . وسوف نبتني لأمننا قبرا نفخاً ،
ونشهد محاكمة المرأة المجرمة . ونثبت وراثتنا ، بأسهل
ما يكون . أيمكن أن يتجاهلنا أحد ؟

ولما بلغ البيت دفع أجر السيارة بسخاء ، وانتهب
درجات السلم حتى وصل إلى باب الغرفة فوجده
مغلقة ، وقد علقت بأعلاه رسالة منلفة ففوضها
وهو يلهث

أتذكر سياحتنا في الجبل والبحيرة ؟ . كنت وأنا
أنهذهك أذكرها دائماً ، وأبكي أثناء نومك ، وطالما
همت أن أوقظك قائلة : جوج ! أخى الصغير ...
تلك لورا التي تكلمك ... ولكن شجاعتي كانت
تخوننى ...

وفي تلك اللحظة فتح الباب وخرجت سيدة
مكنهلة ، وهي مالكة الغرفة المهجورة وصاحبة المدار
كلها وقالت :

— سيدى ! إن الآنسة قد سافرت ولم تترك
عنوانها ، ولم تذكر شيئاً يهتدى به إليها

— حسن ، لقد قرأت خطابها ، تفضل بقبول
هديتها إليك فقد أوصتني أن أشكرك على ما رأت
من لطفك أثناء إقامتها لديك ...

فابتسمت المرأة وقالت : تفضل واسترح قليلا
من عناء المشتري والساومة . فدخل يمسح عرقه ،
وأخذت المرأة الأزهار والهدايا وصفتها في أما كن
لائقة دون أن تمس غلافها ثم سألته : هل كنتما
عازمين على الزواج ؟

أجاب : كلا ، أى زواج ؟ فى بلاد الزوج نحن
أم فى الهند الصينية ، أم أن الحضارة تنفهر ؟
— ولم يولدنى ألا يتزوج عن عشق غير الزوج
وهند الصين ؟

— إنها شقيقتى ياسيدتى من أبى وأمى

— شقيقتك ؟ آء لقد فهمت فمذرة

ولم تركتك على غير صورة ، كأنها تفر من
ضيق ، وأراك مهذباً شهماً لا تشكر قرابتها ، ولا
تأخذها بلاعة

— وكيف أنكر قرابتها وقد أنقذت حياتى
من موت مؤكد ؟ ولكنى فى الحق لم أعرفها لاهولة
الأولى وإن هى عمرتنى

— لعلها خشيت عتاباً أو ملاماً ..
— وأي عتاب يكون بين شقيقين فرق بينهما
الدهر ثم اجتمعا على إحسان أحدهما إلى الآخر
إحساناً لا ينسى .

— إذا ما يسمي فى لغة المصر الحديث « سوء
تفاهم » وإنه للفظ حلال للعقد .

— وأين لى أن أجدها لأركع تحت قدميها ،
شاكرآ مستغفراً ؟ ألا تملين ياسيدتى ، بالله عليك ،
مظنة من مظان وجودها ؟ أحب أن أودعها ولو
شئت مفارقتى ، مستحيل أن أفقدها هكذا .

فأغرورقت عينا المجوز بالدموع وقالت :
— ربما ! ثم خرجت من الغرفة فأطرق
جورج ملباً ثم سمع وقع أقدام فرجع رأسه ليرى
من المقبل عليه .

فاذا بلورا نفسها خاشعة مطأطأة الرأس ، فأقبل
عليها يقبلها ويحتضنها ويبشرها بالسعادة بشرط
ألا يذكر أحدهما كلمة عن الماضى القريب أو البعيد ،
فاجمعهما الله لتفرق بينهما الدكري . فابتهجت
ووافقت ودخلت المجوز تبكى من الفرح وقد جمعت
شملهما بعد أن ظنا أن لا تلاقى بعد الساعة ، وقالت وهى
تنسج بدموعها : أما التى استبقيتها إلى أن تعود ،
وقلت لها : انتظرى حتى أمتحنه ، فإن جفا أوقسا ،
فع السلامة ، وإن حنّ ولان فهو بك أولى وأتما
بمالكا أحق ، ووعدتنى أن تبقى الغرفة لها مادامت
بياديس

— وأنت أيضاً لنسا ، فلن نفارقك بعد اليوم
فقد كان بينك دار النعمة والبركة ، والرجاء بعد
القنوط ، ولا معنى للحياة مع اليأس
محمد لطفى محمد